مع سورة الفاتحة

د. خالد النجار

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مع سورة الفاتحة

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، الذي قال: (الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: رِبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّرابَ بِالنَّهَارَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، فَيَشْفَعَانِ) [أحمد].

أما بعد

فإن من أفضل ما أُنفقت فيه الأعمار كتاب الله تعالى تلاوة وحفظا ودراسة وتدبرا، ولقد مررت مع القرآن بتجربة شخصية عانيت فيها من كتب التفسير المختصرة جدا والتي تبلغ حجم كف اليد الواحدة، فلقد كانت –على عظم فائدتها للكثيرين– أشبه بقاموس ترجمة لأحد اللغات الأجنبية، فكانت الكلمة من القرآن إذا أعياني تفسيرها نظرت في تلك المختصرات لأقف على المعنى المراد في كلمة أو كلمتين على الأكثر، وهذه الطريقة المفرطة في الاختصار جعلت المعاني تتفلت مني سراعا، ذلك لأن النفس جبلت على معايشة المعاني كي تتشرب أبعادها وتلم بأجوائها، ووجدت أن هذا النوع من المختصرات لا يناسبني شخصيا في الوقت الذي قد يناسب غيري، فهرعت إلى كتب التفسير المطولة أتعايش مع الآية ومعانيها، فراقني الأمر ووجدت للآيات رسوخا في صدري بفارق كبير عن طريقة المختصرات، إلا أن كل مفسر من جهابذة السلف والخلف قد أبدع فيما كتب –جزاهم الله عن الإسلام والقرآن خيرا– فكان كل تفسير بالنسبة لي حديقة غناء مختلفة عن أخواتها، حتى أني كلما انتهيت من تفسير وشرعت في آخر، أقول في نفسي: قد استفرغ المفسر السالف كل المعاني، لكن سرعان ما أتعجب من معاني جديدة مع كل تفسير جديد أطالعه، فرأيت أن أجمع ما تيسر لي لأكوّن أفق شخصي من المعايشة مع الآيات بما يشبع نهمتي التي افتقدتها في المختصرات التفسيرية

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الوجيزة، فتجمع لي طرفا منها بين المبسط والمعتدل، دون إسهاب تعجز عنه الهمة ولا اختصار لا تشبع منه النهمة، وكان اعتمادي في أغلب الأحيان على البداية بأيسر التفاسير للعلامة أبي بكر الجزائري طيب الله ثراه، ثم أتبعه بكتاب أضواء البيان للشنقيطي، ثم البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ثم التحرير والتنوير لابن عاشور، ثم تفسير ابن كثير وختاما تفسير القرآن للعثيمين، رحمهم الله تعالى جميعا، فخرج هذا السفر الذي أرضى نفسي تجاه كتاب الله تعالى، وأشبع رغبتي في فهم المعاني القرآنية الجليلة، فرأيت أن أنشره لعل الفائدة تطال غيري من أهل كتاب الله تعالى، فهذا أرجى للقبول، وأوفى للأمانة، وأعظم للأجر.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجنبنا الزلل، ويبسط علينا التوفيق ويعين على التمام، وأن يجعله نافعا لجامعه وقارئه .. إنه نعم المولى ونعم النصير.

د/ خالد سعد النجار
مصر – طنطا- محافظة الغربية
alnaggar66@hotmail.com

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** سورة الفاتحة من السور ذات الأسماء الكثيرة: أنهاها صاحب الإتقان إلى نيف وعشرين بين ألقاب وصفات جرت على ألسنة القراء من عهد السلف، ولم يثبت في السنة الصحيحة والمأثور من أسمائها إلا: فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن، أو أم الكتاب.

** فأما تسميتها «فاتحة الكتاب» فقد ثبتت في السنة في أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ).

وفاتحة مشتقة من «الفتح» وهو إزالة حاجز عن مكان مقصود ولوجه، فصيغتها تقتضي أن موصوفها شيء يزيل حاجزا، وليس مستعملا في حقيقته بل مستعملا في معنى أول الشيء تشبيها للأول بالفاتح لأن الفاتح للباب هو أول من يدخل، فقيل الفاتحة في الأصل مصدر بمعنى الفتح، كالباقية بمعنى البقاء، كما في قوله تعالى: {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} [الحاقة:٨] وكذلك الطاغية في قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} [الحاقة:٥] في قول ابن عباس أي بطغيانهم، والخاطئة بمعنى الخطأ، والحاقة بمعنى الحق.

ففاتحة وَصْفٌ وُصِفَ بِهِ مبدأ القرآن، ثم أضيف إلى الكتاب ثم صار هذا المركب علما بالغلبة على هذه السورة.

ومعنى فتحها الكتاب أنها جعلت أول القرآن لمن يريد أن يقرأ القرآن من أوله، فتكون فاتحة بالجعل النبوي في ترتيب السور.

** وأما تسميتها «أم الكتاب» فقد ثبتت في السنة من ذلك ما في صحيح البخاري في «كتاب الطب» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ، فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيْبٌ. فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ، مَا كُنَّا نَأْبُنُهُ بِرُقْيَةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأُمِّ الْكِتَابِ. قُلْنَا: لَا تُحْدِثُوا شَيْئًا حَتَّى

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نَأْتِيَ أَوْ نَسْأَلَ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: (وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ).

** ووجه تسميتها «أم القرآن» أن الأم يطلق على أصل الشيء ومنشئه، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنْ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ) أي منقوصة مخدوجة.

وقد ذكروا لتسمية الفاتحة أم القرآن وجوها ثلاثة:

١/ أحدها: أنها مبدوه ومفتتحه فكأنها أصله ومنشؤه، يعني أن افتتاحه الذي هو وجود أول أجزاء لقرآن قد ظهر فيها فجعلت كالأم للولد في أنها الأصل والمنشأ فيكون أم القرآن تشبيها بالأم التي هي منشأ الولد لمشابهتها بالمنشأ من حيث ابتداء الظهور والوجود.

٢/ الثاني: أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع:

– الثناء على الله ثناء جامعا لوصفه بجميع المحامد، وتنزيهه من جميع النقائص، ولإثبات تفرده بالإلهية وإثبات البعث والجزاء وذلك من قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ} إلى قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

– والأوامر والنواهي من قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ.. }.

– والوعد والوعيد من قوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ...} إلى آخرها.

فهذه هي أنواع مقاصد القرآن كله، وغيرها تكملات لها، لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية وهي صلاح الدارين وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولما توقفت الأوامر والنواهي على معرفة الآمر، وأنه الله الواجب وجوده، خالق الخلق، لزم تحقيق معنى الصفات، ولما توقف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب والخوف من العقاب لزم تحقق الوعد والوعيد.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والفاتحة مشتملة على هاته الأنواع، فإن قوله {الْحَمْدُ لِلَّهِ} إلى قوله {يَوْمِ الدِّينِ} حمد وثناء، وقوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} إلى قوله {الْمُسْتَقِيمَ} من نوع الأوامر والنواهي، وقوله {صِرَاطَ الَّذِينَ} إلى آخرها من نوع الوعد والوعيد مع أن ذكر {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} يشير أيضا إلى نوع قصص القرآن، وقد يؤيد هذا الوجه بما ورد في الصحيح في {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص:١] أنها (تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) [رواه مسلم] لأن ألفاظها كلها ثناء على الله تعالى.

٣/ الثالث: أنها تشتمل معانيها على جملة معاني القرآن من الحكم النظرية والأحكام العملية، فإن معاني القرآن إما علوم تقصد معرفتها، وإما أحكام يقصد منها العمل بها، فالعلوم كالتوحيد والصفات والنبوءات والمواعظ والأمثال والحكم والقصص، وإما عمل الجوارح وهو العبادات والمعاملات، وإما عمل القلوب –أي العقول– وهو تهذيب الأخلاق وآداب الشريعة، وكلها تشتمل عليها معاني الفاتحة بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام فـ {الْحَمْدُ لِلَّهِ} يشمل سائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى بناء على ما تدل عليه جملة {الْحَمْدُ لِلَّهِ} من اختصاص جنس الحمد به تعالى واستحقاقه لذلك الاختصاص و {رَبِّ الْعَالَمِينَ} يشمل سائر صفات الأفعال والتكوين عند من أثبتها، و {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يشمل أصول التشريع الراجعة للرحمة بالمكلفين، و {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} يشمل أحوال القيامة، و {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} يجمع معنى الديانة والشريعة، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} يجمع معنى الإخلاص لله في الأعمال. و {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} يشمل الأحوال الإنسانية وأحكامها من عبادات ومعاملات وآداب، و {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} يشير إلى أحوال الأمم والأفراد الماضية الفاضلة، وقوله {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} يشمل سائر قصص الأمم الضالة، ويشير إلى تفاصيل ضلالاتهم المحكية عنهم في القرآن.

فلا جرم يحصل من معاني الفاتحة–تصريحا وتضمنا–علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض. وذلك يدعو نفس قارئها إلى تطلب التفصيل على حسب التمكن والقابلية.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ولأجل هذا فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة حرصا على التذكير لما في مطاويها.

** قال ابن عاشور: إن القرآن أنزل هدى للناس وتبيانا للأحكام التي بها إصلاح الناس في عاجلهم وآجلهم ومعاشهم ومعادهم، ولما لم يكن لنفوس الأمة اعتياد بذلك لزم أن يهيأ المخاطبون بها إلى تلقيها، ويعرف تهيؤهم بإظهارهم استعداد النفوس بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يعوق عن الانتفاع بهاته التعاليم النافعة وذلك بأن يجردوا نفوسهم عن العناد والمكابرة. وعن خلط معارفهم بالأغلاط الفاقرة. فلا مناص لها قبل استقبال تلك الحكمة والنظر من الاتسام بميسم الفضيلة. والتخلية عن السفاسف الرذيلة.

فالفاتحة تضمنت مناجاة للخالق جَامِعَةً التَّنَـزُّهَ عن التعطيل والإلحاد والدهرية بما تضمنه قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وعن الإشراك بما تضمنه {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، وعن المكابرة والعناد بما تضمنه {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}. فإن طلب الهداية اعتراف بالاحتياج إلى العلم، ووصف الصراط بالمستقيم اعتراف بأن من العلم ما هو حق ومنه ما هو مَشُوبٌ بِشُبَهٍ وَغَلَطٍ، ومن اعترف بهذين الأمرين فقد أعد نفسه لاتباع أحسنهما، وعن الضلالات التي تعتري العلوم الصحيحة والشرائع الحقة فتذهب بفائدتها وتنزل صاحبها إلى دركة أقل مما وقف عنده الجاهل البسيط، وذلك بما تضمنه قوله: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}. ولأجل هذا سميت هاته السورة «أم القرآن».

** وأما تسميتها «السبع المثاني» فهي تسمية ثبتت بالسنة، ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى [هو الحارث بن نفيع] –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: مَرَّ بِيَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَنَا أُصَلِّي فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ فَقَالَ: (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي) فَقُلْتُ: كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ: (أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} ثُمَّ قَالَ: (أَلَا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ؟) فَذَهَبَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِيَخْرُجَ مِنْ الْمَسْجِدِ فَذَكَّرْتُهُ فَقَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ)

ووجه تسميتها بذلك أنها سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين، ويتعين حينئذ كون البسملة ليست من الفاتحة لتكون سبع آيات، ومن عد البسملة أدمج آيتين.

وأما وصفها بالمثاني فهو مفاعل جمع مُثنّى، مشتق من التثنية وهي ضم ثان إلى أول. ووجه الوصف به أن تلك الآيات تُثَنَّى فِي كُلِّ ركعة. قيل وهو مأثور عن عمر بن الخطاب، وهو مستقيم لأن معناه أنها تضم إليها السورة في كل ركعة، ولعل التسمية بذلك كانت في أول فرض الصلاة، فإن الصلوات فرضت ركعتين ثم أقرت صلاة السفر وأطيلت صلاة الحضر، كذا ثبت في حديث عائشة في الصحيح.

وقيل لأنها تثنى في الصلاة أي تكرر فتكون التثنية بمعنى التكرير بناء على ما شاع عند العرب من استعمال المثني في مطلق المكرر نحو {ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ} [الملك:٤] وقولهم: «لبيك وسعديك»، وعليه فيكون المراد بالمثاني هنا مثل المراد بالمثاني في قوله تعالى: {كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ} [الزمر:٢٣] أي مكرر القصص والأغراض.

** وهذه السورة وضعت في أول السور لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتاب، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن، وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال.

** وهي سورة مكية باتفاق الجمهور، لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} [الحجر:٨٧] والحجر مكية بإجماع. ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كانت في الإسلام صلاة بغيرها. وقد حقق بعض العلماء أنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقال كثير: إنها أول سورة نزلت، والصحيح أنه نزل قبلها {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} [العلق:١] وسورة المدثر ثم الفاتحة، وقال بعضهم هي أول سورة نزلت كاملة أي غير منجمة.

** وهذه السورة لها مميزات تتميّز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال للذي قرأ على اللديغ فبرئ، وقال: (وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ). [البخاري]

** وذكر القرطبي في تفسيره: من أسماء الفاتحة: «الأساس»، شكا رجل إلى الشعبي وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن، فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة لأنها منها دحيت، وأساس السماوات عَريباً وهي السماء السابعة، وأساس الأرض عجيباً وهي الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن وهي سرة الجنان عليها أسست الجنة، وأساس النار جهنم وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى.

** روى مسلم عنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ: "أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ".

** وروى الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَرَجَ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يَا أُبَيُّ) وَهُوَ يُصَلِّي، فَالْتَفَتَ أُبَيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أُبَيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ، قَالَ: (أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أُوحِي إِلَيَّ أَنْ {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال:٢٤]) قَالَ: بَلَى، وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: (تُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟) قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ)؟ قَالَ: فَقَرَأَ أُمَّ القُرْآنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ المَثَانِي وَالقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُهُ): «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

** قال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: إن الله جمع علم الأولين والآخرين في القرآن، وجمع الله علم القرآن في الفاتحة، وجمع علم الفاتحة في آية {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميه – رحمه الله-: "هي الكافية تكفي عن غيرها، ولا يكفي غيرها عنها".

وقال التابعي الحسن البصري – رحمه الله-: "من علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع كتب الله المنزلة".

** وقد ابتدع بعض الناس اليوم في هذه السورة بدعة، فصاروا يختمون بها الدعاء، ويبتدئون بها الخُطب، ويقرؤونها عند بعض المناسبات خاصة على روح الميت، وهذا غلط: تجده مثلاً إذا دعا، ثم دعا قال لمن حوله: "الفاتحة"، يعني اقرؤوا الفاتحة؛ وبعض الناس يبتدئ بها في خطبه، أو في أحواله. وهذا أيضاً غلط؛ لأن العبادات مبناها على التوقيف والاتِّباع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{بِسْمِ} باء الجر تأتي لمعان: للإلصاق {وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ} [المائدة:٦]، والاستعانة [ذبحت بالسكين]، والقسم [بالله لقد أخذ]، والسبب، قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ} [النساء:١٦٠].. والباء في {بسم الله} للاستعانة، نحو كتبت بالقلم، وحذفت الألف من بسم هنا في الخط تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

** والجار والمجرور متعلق بمحذوف؛ وهذا المحذوف يقَدَّر فعلاً متأخراً مناسباً؛ فإذا قلت: «باسم الله» وأنت تريد أن تأكل؛ تقدر الفعل: «باسم الله آكل».

– وقدرناه متأخراً لفائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بتقديم اسم الله عزّ وجل.

والفائدة الثانية: الحصر؛ لأن تأخير العامل يفيد الحصر، كأنك تقول: لا آكل باسم أحد متبركاً به، ومستعيناً به، إلا باسم الله عزّ وجلّ.

– وقدرناه مناسباً؛ لأنه أدلّ على المقصود.

{اللَّهِ} علم لا يطلق إلا على المعبود بحق، اسم الله رب العالمين لا يسمى به غيره؛ وهو أصل الأسماء؛ ولهذا تأتي الأسماء تابعة له.

{الرَّحْمَنِ} أي ذو الرحمة الواسعة؛ ولهذا جاء على وزن "فَعْلان" الذي يدل على السعة والكثرة.

{الرَّحِيمِ} ذو الرحمة بعباده المفيضها عليهم في الدنيا والآخرة، أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن "فعيل" الدال على وقوع الفعل.

فهنا رحمة هي صفته. هذه دل عليها {الرحمن}؛ ورحمة هي فعله. أي إيصال الرحمة إلى المرحوم. دلّ عليها {الرحيم}.

** وقيل: الرحمن أكثر مبالغة، وكان القياس الترقي، كما تقول: عالم نحرير شجاع باسل، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم ليكون كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة، يختص به الله، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين، كما قال تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب:٤٣]

وقال العزيزي: الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم واللطف بهم.

وقال ثعلب: "الرحمن أمدح، والرحيم ألطف".

** والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دلّ عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنّة من إثبات الرحمة لله عز وجل وهو كثير جداً؛ وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله تعالى.

وقد أنكر قوم وصف الله تعالى بالرحمة الحقيقية، وحرّفوها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام، زعماً منهم أن العقل يحيل وصف الله بذلك؛ قالوا: "لأن الرحمة انعطاف ولين وخضوع ورقة؛ وهذا لا يليق بالله عزّ وجلّ"؛ والرد عليهم من وجهين:.

- الوجه الأول: منع أن يكون في الرحمة خضوع وانكسار ورقة؛ لأننا نجد من الملوك الأقوياء رحمة دون أن يكون منهم خضوع ورقة وانكسار.

- الوجه الثاني: أنه لو كان هذا من لوازم الرحمة ومقتضياتها فإنما هي رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق سبحانه وتعالى فهي تليق بعظمته وجلاله وسلطانه؛ ولا تقتضي نقصاً بوجه من الوجوه.

** وفي البسملة من ضروب البلاغة نوعان:

١/ أحدهما: الحذف، وهو ما يتعلق به الباء في بسم، والحذف قيل لتخفيف اللفظ، وقال أبو القاسم السهيلي: وليس كما زعموا، ولكن في حذفه فائدة، وذلك أنه موطن ينبغي أن لا يقدم فيه سوى ذكر الله تعالى.

ومن الحذف أيضاً حذف الألف في {بسم الله} وفي {الرحمن} في الخط، وذلك لكثرة الاستعمال.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

٢/ النوع الثاني: التكرار في الوصف، ويكون إما لتعظيم الموصوف، أو للتأكيد، ليتقرر في النفس.

هل البسملة آية من الفاتحة؛ أم لا؟

** سورة الفاتحة سبع آيات باتفاق القراء والمفسرين، لكن الخلاف بين العلماء وقع في البسملة، فعند أهل المدينة لا تعد البسملة آية، وتعد {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية، وعند أهل مكة وأهل الكوفة تعد البسملة آية وتعد {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} جزء آية، والحسن البصري عد البسملة آية وعد {أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية.

** إذا فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهراً في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة؛ ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله؛ وهذا القول هو الحق؛ ودليل هذا: النص، وسياق السورة.

** أما النص: فتحديد هذه الآيات السبع هو ما دل عليه حديث الصحيحين عن أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ،

فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي،

وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي،

وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي،

فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ،

فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.

وهذا كالنص على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ وروى البخاري في باب «القراءة خلف الإمام» عَنْ أَنَسٍ، –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "كَانَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ يَسْتَفْتِحُونَ الْقِرَاءَةَ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وفي "صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: "صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ: {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} الفاتحة/ ١

وفي صحيح مسلم أيضا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِـ {الْحَمْد لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} لَا يَذْكُرُونَ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فِي أَوَّلِ قِرَاءَةٍ وَلَا فِي آخِرِهَا.

والمراد: "لا يجهرون"؛ كما ورد في المسند بسند صحيح عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: "صَلَّيْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَخَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَكَانُوا لَا يَجْهَرُونَ بِـ {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}". وهي رواية ابن حبان وصححها الأرناؤوط. وفي رواية ابن خزيمة: "يُسِرُّونَ".

والتمييز بينها وبين الفاتحة في الجهر وعدمه يدل على أنها ليست منها.

** وأما من جهة السياق من حيث المعنى: فالفاتحة سبع آيات بالاتفاق؛ وإذا أردت أن توزع سبع الآية على موضوع السورة وجدت أن نصفها هو قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وهي الآية التي قال الله فيها: "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين"؛ لأن {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}: واحدة؛ {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: الثانية؛ {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}: الثالثة؛ وكلها حق لله عزّ وجلّ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}: الرابعة. يعني الوسَط؛ وهي قسمان: قسم منها حق لله؛ وقسم حق للعبد؛ {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} للعبد؛ {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} للعبد؛ {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} للعبد.

فتكون ثلاث آيات لله عزّ وجل وهي الثلاث الأولى؛ وثلاث آيات للعبد . وهي الثلاث الأخيرة؛ وواحدة بين العبد وربّه. وهي الرابعة الوسطى..

ثم من جهة السياق من حيث اللفظ، فإذا قلنا: إن البسملة آية من الفاتحة لزم أن تكون الآية السابعة طويلة على قدر آيتين؛ ومن المعلوم أن تقارب الآية في الطول والقصر هو الأصل..

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فالصواب الذي لا شك فيه أن البسملة ليست من الفاتحة. كما أن البسملة ليست من بقية السور عدا سورة النمل.

** لكن كيف اختلف أهل العلم من السلف على أن البسملة آية من سورة الفاتحة، أو أنها ليست بآية؟ وهل هذا الخلاف معتبر؟ وكيف نسوِّغ الاختلاف في آية من القرآن الكريم الذي نقل إلينا بالتواتر، جمع عن جمع، وهكذا، على أنها آية، أو ليست بآية؟

والجواب: أن اختلاف العلماء في عد البسملة آية من القرآن أم لا، لا يدخل في هذا، لأن أئمة القراءات لم يختلفوا في قراءتها في أوائل السور، وقد اتفق الصحابة –رضي الله عنهم– على إثباتها في أوائل السور إلا سورة التوبة، وذلك في المصحف الذي كتبه عثمان بن عفان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وبعث به إلى الأمصار.

وقد جعل بعض العلماء الاختلاف في عد البسملة آية من القرآن، كاختلاف أئمة القراءات في بعض الكلمات والحروف، فقد يثبت في بعض القراءات ما لا يثبت في غيرها.. قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله–:

"اختلف العلماء في البسملة، هل هي آية من أول كل سورة، أو من الفاتحة فقط، أو ليست آية مطلقاً، أما قوله في سورة النمل: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} فهي آية من القرآن إجماعاً.

وأما سورة «براءة»: فليست البسملة آية منها إجماعاً، واختُلف فيما سوى هذا، فذكر بعض أهل الأصول أن البسملة ليست من القرآن، وقال قوم: هي منه في الفاتحة فقط، وقيل: هي آية من أول كل سورة، وهو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى.

ومِن أحسن ما قيل في ذلك: الجمع بين الأقوال بأن البسملة في بعض القراءات –كقراءة ابن كثير– آية من القرآن، وفي بعض القراءات: ليست آية، ولا غرابة في هذا.

فقوله تعالى في سورة "الحديد" {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} لفظة (هُوَ) من القرآن في قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وليست من القرآن في قراءة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

نافع، وابن عامر؛ لأنهما قرءا {فإن الله الغني الحميد}، وبعض المصاحف فيه لفظة (هُوَ)، وبعضها ليست فيه.

وقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [البقرة:١١٦]، فالواو من قوله (وقالوا) في هذه الآية من القرآن على قراءة السبعة غير ابن عامر، وهي في قراءة ابن عامر ليست من القرآن لأنه قرأ: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} بغير واو، وهي محذوفة في مصحف أهل الشام، وقس على هذا.

وبه تعرف أنه لا إشكال في كون البسملة آية في بعض الحروف دون بعض، وبذلك تتفق أقوال العلماء" أهـ

ويقول ابن عاشور: واختلفوا في قراءة البسملة في غير الشروع في قراءة سورة من أولها، أي في قراءة البسملة بين السورتين:

فورش عن نافع في أشهر الروايات عنه وابن عامر، وأبو عمرو، وحمزة، ويعقوب، وخلف، لا يبسملون بين السورتين وذلك يُعَلَّلُ بِأَنَّ التَّشَبُّهَ بِفِعْلِ كُتَّابِ الْمُصْحَفِ خَاصٌّ بالابتداء، وَبِحَمْلِهِمْ رَسْمَ البسملة في المصحف على أنه علامة على ابتداء السورة لا على الفصل، إذ لو كانت البسملة علامة على الفصل بين السورة والتي تليها لما كتبت في أول سورة الفاتحة، فكان صنيعهم وجيها لأنهم جمعوا بين ما رووه عن سلفهم وبين دليل قصد التيمن، ودليل رأيهم أن البسملة ليست آية من أول كل سورة.

وقالون عن نافع وابن كثير وعاصم والكسائي وأبو جعفر يبسملون بين السورتين سوى ما بين الأنفال وبراءة، وعدوه من سنة القراءة، وليس حَظُّهُمْ في ذلك إلا اتباع سلفهم، إذ ليس جميعهم من أهل الاجتهاد، وَلَعَلَّهُمْ طَرَدُوا قَصْدَ التَّيَمُّنِ بِمُشَابَهَةِ كُتَّابِ المصحف في الإشعار بابتداء السورة والإشعار بانتهاء التي قبلها.

وفي هذا ما يدل على أن اختلاف مذاهب القراء في قراءة البسملة في مواضع من القرآن ابتداء ووصلا كما تقدم لا أثر له في الاختلاف في حكم قراءتها في الصلاة، فإن قراءتها في الصلاة تجري على إحكام النظر في الأدلة وليست مذاهب القراء بمعدودة من

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أدلة الفقه، وإنما قراءاتهم روايات وسنة متبعة في قراءة القرآن دون استناد إلى اعتبار أحكام رواية القرآن من تواتر ودونه، ولا إلى وجوب واستحباب وتخيير، فالقارئ يقرأ كما روى عن معلميه ولا ينظر في حكم ما يقرأه من لزوم كونه كما قرأ أو عدم اللزوم، تجري أعمالهم في صلاتهم على نَزَعَاتِهِمْ في الفقه من اجتهاد وتقليد، ويوضح غلط من ظن أن خلاف الفقهاء في إثبات البسملة وعدمه مبني على خلاف القراء.

وقال أهل العلم: وقد اختلف في عدها آية من آيات الفاتحة وفي عدمه كُتّابُ المصاحف مع اتفاقهم جميعًا على كتابتها، وعلى أن الفاتحة سبع آيات، فهي آية من الفاتحة في المصحف المكي والمصحف الكوفي، وليست آية مستقلة في المصحف المدني والشامي والبصري.

وقد قال ابن العربي المالكي: من قال إنها ليست بآية في أوائل السور لم يكفر لأنه موضع خلاف، ومن قال إنها ليست من القرآن كفر لوجودها في آية النمل.

وعلى هذا؛ فمن أخذ بالعد المدني لا يعد {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}آية من الفاتحة ولا من غيرها، ومن أخذ بالعد الكوفي عدها آية من الفاتحة دون غيرها، ونجد الإشارة إلى هذا التفصيل في المصاحف المطبوعة برواية حفص عن عاصم فهي تعد البسملة آية من الفاتحة، وهذه المصاحف هي المنتشرة في المشرق. أما المصاحف المكتوبة برواية قالون وورش عن نافع فإنها لا تعد البسملة آية من الفاتحة، ومصاحف قراءة نافع أكثر انتشار في بلاد المغرب. مع اتفاقهم على كتابتها في بداية كل سورة –كما أشرنا– ما عدا براءة، واتفاقهم على أن الفاتحة سبع آيات، فمن عد البسملة آية لم يعد: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية، والذين لا يعدون البسملة آية يعدون: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} آية، وبعدها: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ...}

والحاصل أن الذي جعلهم يحسبون البسملة آية من بداية الفاتحة دون غيرها هو اتباعهم للعد الكوفي الذي طبعت عليه المصاحف التي بين أيدينا، وهو يوافق العد المكي

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

في عدها آية من الفاتحة. وعدد الآيات القرآنية توقيفي يعتمد فيه على الرواية والأخذ من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه الذين أقرأهم القرآن.

** أما الفقهاء فمذهب المالكية، والمشهور عند الحنفية، والأصح عند الحنابلة: "أن البسملة ليست آية من الفاتحة ومن كل سورة، وأنها آية واحدة من القرآن كله، أنزلت للفصل بين السور، وذكرت في أول الفاتحة.

وذهب الشافعية: إلى أن البسملة آية كاملة من الفاتحة، ومن كل سورة.

قال الإمام النووي رحمه الله في «المجموع»: أما حكم المسألة فمذهبنا أن {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} آية كاملة من أول الفاتحة بلا خلاف، وليست في أول براءة بإجماع المسلمين، وأما باقي السور غير الفاتحة وبراءة، ففي البسملة في أول كل سورة منها ثلاثة أقوال حكاها الخراسانيون أصحها وأشهرها وهو الصواب أو الأصوب أنها آية كاملة.

وقال أيضاً: ولا خلاف عندنا أنها تجب قراءتها في أول الفاتحة، ولا تصح الصلاة إلا بها لأنها كباقي الفاتحة. وهذا هو الراجح.

وقال أيضا: مذهبنا أن البسملة آية من أول الفاتحة بلا خلاف، فكذلك هي آية كاملة من أول كل سورة غير براءة على الصحيح في مذهبنا، وبهذا قال خلائق لا يحصون من السلف. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هذا قول ابن عباس وابن الزبير وطاووس وعطاء ومكحول وابن المنذر وطائفة. واحتج أصحابنا بأن الصحابة -رضي الله عنهم- أجمعوا على إثباتها في المصحف في أوائل السور جميعاً سوى براءة بخط المصحف بخلاف الأعشار وتراجم السور، فإن العادة كتابتها بحمرة ونحوها، فلو لم تكن قرآناً لما استجازوا إثباتها بخط المصحف من غير تمييز، لأن ذلك يحمل على اعتقاد أنها قرآن فيكونون مغررين بالمسلمين، وحاملين لهم على اعتقاد ما ليس بقرآن، فهذا مما لا يجوز اعتقاده في الصحابة -رضي الله عنهم-. قال أصحابنا هذا أقوى أدلتنا في إثباتها. أهـ

** وترتب على هذا اختلافهم في حكم الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية للإمام، وهو على التفصيل الآتي:

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

١/ ذهب الحنفية والحنابلة إلى أنه تسن قراءة البسملة سرًّا، في الصلاة السرية والجهرية. قال الترمذي: وعليه العمل عند أكثر أهل العلم، من أصحاب النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ومن بعدهم من التابعين، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي. وحكاه ابن المنذر عن ابن مسعود وعمار بن ياسر وابن الزبير، والحكم، وحماد، والأوزاعي، والثوري، وابن المبارك.

قال أهل العلم: ذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد –في رواية ذكر ابن قدامة في المغني أنها الرواية المنصورة عند أصحابه– إلى أن البسملة ليست آية مستقلة في الفاتحة. ومن أوضح ما احتجوا به ما أخرجه الإمام مالك في الموطأ، والإمام مسلم في الصحيح، حديث: (قَسَمْتُ الصلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ..).. محل الشاهد أنه بدأ الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، ولم يذكر البسملة. ويضاف إلى هذا ما استفاض من عدم جهر الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وخلفائه بها في الصلاة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢/ ذهب الشافعية إلى أن السنة الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية، في الفاتحة وفي السورة بعدها. واستدلوا بما روى ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– جهر بـ {بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}". إلا أنه حديث لا يصح، فقد أخرجه الترمذي وقال: "وليس إسناده بذاك".

وقالوا: لأنها تقرأ على أنها آية من القرآن، بدليل أنها تقرأ بعد التعوذ؛ فكان سنتها الجهر كسائر الفاتحة.

ذكر ابن قدامة في المغني، والنووي في المجموع، وابن حزم في المحلى: أن الشافعي وابن المبارك وأحمد في رواية عنه جعلوها آية مستقلة، ولا تصح الصلاة دونها. ورجح هذا المذهب النووي وابن حزم. ومن أوضح حجج هذا المذهب حديث الدارقطني والبيهقي: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ –رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ رَسُولُ اللَّهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِذَا قَرَأْتُمُ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاقْرَءُوا {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} إِنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

الْمَثَانِى وَ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} إِحْدَاهَا) قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْحَنَفِيُّ: ثُمَّ لَقِيتُ نُوحًا فَحَدَّثَنِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ .. والحديث صحيح، كما قال الألباني في صحيح الجامع، وصحح ابن حجر كونه موقوفًا.

** ومن هنا يعلم أن مسألة البسملة في الفاتحة وما يترتب على تركها من المسائل الخلافية التي بحث فيها العلماء قديمًا ولم يصلوا فيها إلى ما يقطع النزاع ويرفع الخلاف. وعليه فمن قلد من لم ير أنها آية من الفاتحة فلا يسجد لتركها لا في الفاتحة ولا في السورة بالأولى، ومن قلد مخالفيه أعاد الصلاة إذا لم يتذكر أنه تركها، إلا بعد فوات التدارك، ولا يكفي السجود عنها. والله أعلم.

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)

{الْحَمْدُ} أصل الحمد: الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها باللسان وحده، وشرعا هو: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ الكمال الذاتي، والوصفي، والفعلي؛ فهو كامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؛ ولا بد من قيد وهو «المحبة، والتعظيم»؛ قال أهل العلم: "لأن مجرد وصفه بالكمال بدون محبة، ولا تعظيم: لا يسمى حمداً؛ وإنما يسمى مدحاً"؛ ولهذا يقع من إنسان لا يحب الممدوح؛ لكنه يريد أن ينال منه شيئاً؛ تجد بعض الشعراء يقف أمام الأمراء، ثم يأتي لهم بأوصاف عظيمة لا محبة فيهم؛ ولكن محبة في المال الذي يعطونه، أو خوفاً منهم؛ ولكن حمدنا لربنا عزّ وجلّ حمدَ محبةٍ، وتعظيمٍ؛ فلذلك صار لا بد من القيد في الحمدَ أنه وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ و "أل" في {الحمد} للاستغراق: أي استغراق جميع المحامد.

فالله تعالى مستحق مختص بالحمد الكامل من جميع الوجوه؛ فروى ابن ماجة عن عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْها– قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ) وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** قال ابن عاشور: وإن الذي لقن أهل القرآن ما فيه جماع طرائق الرشد بوجه لا يحيط به غير علام الغيوب لم يهمل إرشادهم إلى التحلي بزينة الفضائل وهي أن يقدروا النعمة حق قدرها بشكر المنعم بها فأراهم كيف يتوجون مناجاتهم بحمد واهب العقل ومانح التوفيق. ولذلك كان افتتاح كل كلام مهم بالتحميد سنة الكتاب المجيد. فسورة الفاتحة بما تقرر منزلة من القرآن منزلة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة، وهذا الأسلوب له شأن عظيم في صناعة الأدب العربي وهو أعون للفهم وأدعى للوعي.

** وقد رسم أسلوب الفاتحة للمنشئين قواعد للمقدمة:

– القاعدة الأولى: إيجاز المقدمة لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة، وليكون سنة للخطباء فلا يطيلوا المقدمة كي لا ينسبوا إلى العي، فإنه بمقدار ما تطال المقدمة يقصر الغرض، ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة.

– الثانية: أن تشير إلى الغرض المقصود وهو ما يسمى براعة الاستهلال لأن ذلك يهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه إن كانوا من أهل التلقي فحسب، أو لنقده وإكماله إن كانوا في تلك الدرجة، ولأن ذلك يدل على تمكن الخطيب من الغرض وثقته بسداد رأيه فيه بحيث ينبه السامعين لوعيه، وفيه سنة للخطباء ليحيطوا بأغراض كلامهم. وقد تقدم بيان اشتمال الفاتحة على هذا عند الكلام على وجه تسميتها أم القرآن.

– الثالثة: أن تكون المقدمة من جوامع الكلم وقد بين ذلك علماء البيان عند ذكرهم المواضع التي ينبغي للمتكلم أن يتأنق فيها.

– الرابع: أن تفتتح بحمد الله.

** وقال أيضا: ولما لقن المؤمنون هاته المناجاة البديعة التي لا يهتدي إلى الإحاطة بها في كلامه غير علام الغيوب سبحانه، قدم الحمد عليها ليضعه المناجون كذلك في

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مناجاتهم جريا على طريقة بلغاء العرب عند مخاطبة العظماء أن يفتتحوا خطابهم إياهم وطلبتهم بالثناء والذكر الجميل.

فكان افتتاح الكلام بالتحميد، سنة الكتاب المجيد، لكل بليغ مجيد، فلم يزل المسلمون من يومئذ يلقبون كل كلام نفيس لم يشتمل في طالعه على الحمد بالأبتر وقد لقبت خطبة زياد بن أبي سفيان التي خطبها بالبصرة بالبتراء لأنه لم يفتتحها بالحمد.

** وقال أيضا: قدم الحمد لأن المقام هنا مقام الحمد إذ هُوَ ابْتِدَاءُ أَوْلَى النِّعَمِ بِالْحَمْدِ وَهِيَ نِعْمَةُ تَنْزِيلِ القرآن الذي فيه نجاح الدارين، فتلك الْمِنَّةُ من أكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكمال لاسيما وقد اشتمل القرآن على كمال المعنى واللفظ والغاية فكان خُطُورُهُ عند ابتداء سماع إنزاله وابتداء تلاوته مُذَكِّرًا بِمَا لِمُنْزِلِهِ تعالى من الصفات الجميلة، وذلك يُذَكِّرُ بِوُجُوبِ حمده وأن لا يغفل عنه، فكان المقام مقام الحمد لا محالة، فلذلك قُدِّمَ وَأُزِيلَ عنه ما يؤذن بتأخره لمنافاته الاهتمام.

ثم إن ذلك الاهتمام تَأَتَّى بِهِ اعْتِبَارُ الاهتمام بتقديمه أيضا على ذكر الله تعالى اعتدادا بأهمية الحمد العارضة في المقام، وإن كان ذكر الله أهم في نفسه لأن الأهمية العارضة تقدم على الأهمية الأصلية لأنها أمر يقتضيه المقام والحال والآخر يقتضيه الواقع، والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال والمقام، ولأن ما كان الاهتمام به لعارض هو المحتاج للتنبيه على عارضه إذ قد يخفى، بخلاف الأمر المعروف المقرر فلا فائدة في التنبيه عليه بل ولا يُفِيتُهُ التنبيه على غيره.

{للّهِ} اللام للاختصاص والاستحقاق؛ و {الله} اسمَ ربنا عزّ وجلّ؛ لا يسمى به غيره؛ ومعناه: المألوه. أي المعبود حباً وتعظيماً.

{رَبِّ} هو من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير؛ فهو الخالق المالك لكل شيء المدبر لجميع الأمور. فالمراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها، إذ التربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجا.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وإنما ورد في الحديث النهي عن أن يقول أحد لسيده ربي وليقل: سيدي، وهو نهي كراهة للتأديب، ولذلك خص النهي بما إذا كان المضاف إليه ممن يعبد عرفا كأسماء الناس لدفع تهمة الإشراك وقطع دابره، وجوزوا أن يقول: "رب الدابة ورب الدار"، وأما بالإطلاق فالكراهة أشد فلا يقل أحد للملك ونحوه هذا «رب».

وفيه: تقديم وصف الله بالألوهية على وصفه بالربوبية؛ وهذا إما لأن "الله" هو الاسم العَلَم الخاص به، والذي تتبعه جميع الأسماء؛ وإما لأن الذين جاءتهم الرسل ينكرون الألوهية فقط.

{الْعَالَمِينَ} كل ما سوى الله فهو من العالَم؛ وُصفوا بذلك؛ لأنهم عَلَم على خالقهم سبحانه وتعالى؛ ففي كل شيء من المخلوقات آية تدل على الخالق: على قدرته، وحكمته، ورحمته، وعزته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

قال صاحب أضواء البيان: لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [الشعراء:٢٣-٢٤]

قال بعض العلماء: اشتقاق العالم من العلامة، لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه متصفا بصفات الكمال والجلال، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران:١٩٠] والآية في اللغة: العلامة.

قال ابن عاشور: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} وصف لاسم الجلالة، فإنه بعد أن أسند الحمد لاسم ذاته تعالى تنبيها على الاستحقاق الذاتي، عقب بالوصف وهو الرب ليكون الحمد متعلقا به أيضا، فلذلك لم يقل الحمد لرب العالمين كما قال {يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [المطففين:٦] ليؤذن باستحقاقه الوصفي أيضا للحمد كما استحقه بذاته.

** قال القرطبي: اختلف العلماء أيما أفضل قول العبد: «الحمد لله رب العالمين»، أو قول «لا إله إلا الله»؟ فقالت طائفة: قوله «الحمد لله رب العالمين» أفضل لأن في

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ضمنه التوحيد الذي هو «لا إله إلا الله»، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قوله: «لا إله إلا الله» توحيد فقط.

وقالت طائفة: «لا إله إلا الله» أفضل لأنها تدفع الكفر والإشراك وعليها يقاتل الخلق، قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله). واختار هذا القول ابن عطية، قال: والحاكم بذلك قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَفْضَل مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وَحْده لَا شَرِيك لَهُ، لَهُ الْمُلْك وَلَهُ الْحَمْد وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير) [الطبراني]

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} هما وصفان لله تعالى، واسمان من أسمائه الحسنى، مشتقان من «الرحمة» على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم، فالرحمن هو ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا، والرحيم ذو الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب:٤٣] فخصهم باسمه الرحيم. وفي الدعاء المأثور من قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا) [حسن الطبراني].

والدليل على أنه رحيم بالمؤمنين في الدنيا أيضا: أن ذلك هو ظاهر قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب:٤٣]؛ لأن صلاته عليهم وصلاة الملائكة وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور رحمة بهم في الدنيا. وإن كان سبب الرحمة في الآخرة أيضا، وكذلك قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١١٧]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

** واسم الرحمة موضوع في اللغة العربية لرقة الخاطر وانعطافه نحو حي بحيث تحمل من اتصف بها على الرفق بالمرحوم والإحسان إليه ودفع الضر عنه وإعانته على المشاق.

ووصف الله تعالى بصفات الرحمة يجيء في لسان الشرائع تعبيرا عن المعاني العالية بأقصى ما تسمح به اللغات، مع اعتقاد تنزيه الله عن أعراض المخلوقات بالدليل العام على التنزيه وهو مضمون قول القرآن: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى:١١] فأهل الإيمان إذا سمعوا أو أطلقوا وصفي: «الرحمن الرحيم» لا يفهمون منه حصول ذلك الانفعال الملحوظ في حقيقة الرحمة في متعارف اللغة العربية لسطوع أدلة تنزيه الله تعالى من الأعراض، بل إنه يراد بهذا الوصف في جانب الله تعالى إثبات الغرض الأسمى من حقيقة الرحمة وهو صدور آثار الرحمة من الرفق واللطف والإحسان والإعانة.

** وفي الكلام عن البسملة قيل: الرحمن أكثر مبالغة، وكان القياس الترقي، كما تقول: "عالم نحرير وشجاع باسل"، لكن أردف الرحمن الذي يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم ليكون كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف.

قال ابن عاشور: لكن شاع ورود إشكال على وجه إرداف وصفه الرحمن بوصفه بالرحيم مع أن شأن أهل البلاغة إذا أجروا وصفين في معنى واحد على موصوف في مقام الكمال أن يرتقوا من الأعم إلى الأخص ومن القوي إلى الأقوى كقولهم: شجاع باسل، وجواد فياض، وعالم نحرير، وخطيب مِصْقَع [أي مُجهِرٌ بخطبته]، وَشَاعِرٌ مُفْلِق.

وأجاب أهل التفسير أن: الرحمن أخص من الرحيم فتعقيب الأول بالثاني تعميم بعد خاص لأن وصف الرحمن مختصا به تعالى، وكان أول إطلاقه مما خصه به القرآن على التحقيق بحيث لم يكن التوصيف به معروفا عند العرب.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ} [الفرقان:٦٠] وقال: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [الرعد:٣٠] وقد تكرر مثل هاتين الآيتين في القرآن، وخاصة في السور المكية، مثل: سورة الفرقان وسورة الملك. وقد ذكر

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

«الرحمن» في سورة الملك باسمه الظاهر وضميره ثماني مرات مما يفيد الاهتمام بتقرير هذا الاسم لله تعالى في نفوس السامعين، فالظاهر أن هذا الوصف تنوسي في كلامهم. أو أنكروا أن يكون من أسماء الله.

ومن دقائق القرآن أنه آثر اسم الرحمن في قوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ} في سورة الملك، وقال {أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} في سورة النحل، إذ كانت آية سورة الملك مكية وآية سورة النحل القدر النازل بالمدينة من تلك السورة.

أما مدلول «الرحيم» كون الرحمة كثيرة التعلق إذ هو من أمثلة المبالغة، ولذلك كان يطلق على غير الله تعالى كما في قوله تعالى في حق رسوله {بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة:١٢٨] فليس ذكر إحدى الصفتين بمغن عن الأخرى.

فتقديم الرحمن على الرحيم لأن الصيغة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها.

** وإجراء هذين الوصفين العليين على اسم الجلالة بعد وصفه بأنه رب العالمين لمناسبة ظاهرة للبليغ لأنه بعد أن وصف بما هو مقتضى استحقاقه الحمد من كونه رب العالمين أي مدبر شؤونهم ومبلغهم إلى كمالهم في الوجودين الجثماني والروحاني، ناسب أن يتبع ذلك بوصفه بالرحمن أي الذي الرحمة له وصف ذاتي تصدر عنه آثاره بعموم واطراد على ما تقدم، فلما كان ربا للعالمين وكان المربوبون ضعفاء كان احتياجهم للرحمة واضحا وكان ترقبهم إياها من الموصوف بها بالذات ناجحا.

فإن قلت: إن الربوبية تقتضي الرحمة لأنها إبلاغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا وذلك يجمع النعم كلها، فلماذا احتيج إلى ذكر كونه رحمانا؟ قلت: لأن الرحمة تتضمن أن ذلك الإبلاغ إلى الكمال لم يكن على وجه الإعنات بل كان برعاية ما يناسب كل نوع وفرد ويلائم طوقه واستعداده، فكانت الربوبية نعمة، والنعمة قد تحصل بضرب من الشدة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

والأذى، فأتبع ذلك بوصفه بالرحمن تنبيها على أن تلك النعم الجليلة وصلت إلينا بطريق الرفق واليسر ونفي الحرج، حتى في أحكام التكاليف والمناهي والزواجر فإنها مرفوقة باليسر بقدر ما لا يبطل المقصود منها، فمعظم تدبيره تعالى بنا هو رحمات ظاهرة كالتمكين من الأرض وتيسير منافعها، ومنه ما رحمته بمراعاة اليسر بقدر الإمكان مثل التكاليف الراجعة إلى منافعنا كالطهارة وبث مكارم الأخلاق، ومنها ما منفعته للجمهور فتتبعها رحمات الجميع لأن في رحمة الجمهور رحمة بالبقية في انتظام الأحوال كالزكاة.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} هو يوم القيامة؛ و {الدِّينِ} هنا بمعنى الجزاء؛ يعني أنه سبحانه وتعالى مالك لذلك اليوم الذي يجازى فيه الخلائق؛ فلا مالك غيره في ذلك اليوم؛ و «الدين» تارة يراد به الجزاء، كما في هذه الآية، ومنه قوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ} [النور:٢٥]، أي جزاء أعمالهم بالعدل؛ ويقال: «كما تدين تدان»، أي كما تعمل تُجازى. وتارة يراد به العمل، كما في قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:٦]

** وفي قوله تعالى: {مالك} قراءة سبعية: {مَلِك}، قرأه الجمهور بدون ألف بعد الميم، وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف {مَالِك} بالألف. وكلتاهما صحيحة ثابتة كما هو شأن القراءات المتواترة.

و "الملك" أخص من "المالك". وفي الجمع بين القراءتين فائدة عظيمة؛ وهي أن مُلكه جلّ وعلا ملك حقيقي؛ لأن مِن الخلق مَن يكون مَلِكاً، ولكن ليس بمالك: يسمى ملكاً اسماً وليس له من التدبير شيء؛ ومِن الناس مَن يكون مالكاً، ولا يكون مَلِكاً: كعامة الناس؛ ولكن الرب عزّ وجلّ مَالكٌ مَلِك.

فالأول {مَالِك} صفة مشبهة صارت اسما لصاحب الْمُلْكِ، والثاني {مَلِك} اسم فاعل من مَلَكَ إذا اتصف بِالْمِلْكِ، وكلاهما مشتق من (مَلَكَ)، فأصل مادة مَلَكَ في اللغة

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

ترجع تصاريفها إلى معنى «الشد والضبط» كما قاله ابن عطية، ثم يتصرف ذلك بالحقيقة والمجاز، والتحقيق والاعتبار، وقراءة (مَلِكِ) بدون ألف تدل على تمثيل الهيئة في نفوس السامعين لأن الْمَلِكَ هو ذو الْمُلْكِ وَالْمُلْكُ أَخَصُّ مِنَ الْمِلْكِ، إِذِ الْمُلْكُ هو التصرف في الموجودات والاستيلاء ويختص بتدبير أمور العقلاء وسياسة جمهورهم وأفرادهم ومواطنهم فلذلك يقال مَلِكِ النَّاسِ وَلَا يُقَالُ: مَلِكِ الدَّوَابِّ أَوِ الدَّرَاهِمِ، وَأَمَّا الْمِلْكُ، فهو الاختصاص بالأشياء ومنافعها دون غيره.

واعلم أن وصفه تعالى بملك يوم الدين تكملة لإجراء مجامع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، فإنه بعد أن وصف بأنه رب العالمين وذلك معنى الإلهية الحقة إذ يفوق ما كانوا ينعتون به آلهتهم من قولهم: "إله بني فلان" فقد كانت الأمم تتخذ آلهة خاصة لها كما حكى الله عن بعضهم: {فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى} [طه:٨٨] وقال: {قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} [لأعراف:١٣٨] وكانت لبعض قبائل العرب آلهة خاصة، فقد عبدت ثقيف اللات، وفي حديث عائشة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْها– في الموطأ: " كَانَ الْأَنْصَارُ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّل". الحديث.

فوصف الله تعالى بأنه رب العالمين كلهم، ثم عقب بوصفي الرحمن الرحيم لإفادة عظم رحمته، ثم وصف بأنه ملك يوم الدين وهو وصف بما هو أعظم مما قبله لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء الذي هو أول أيام الخلود، فمَلك ذلك الزمان هو صاحب المُلك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت مُلكه، وهو الذي لا ينتهي ملكه ولا ينقضي، فأين هذا الوصف من أوصاف المبالغة التي يفيضها الناس على أعظم الملوك: مثل ملك الملوك "شاهان شاه" وملك الزمان وملك الدنيا "شاه جهان" وما شابه ذلك.

مع ما في تعريف ذلك اليوم بإضافته إلى الدين (أي الجزاء) من إدماج التنبيه على عدم حكم الله لأن إيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العامل بما يعادل

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

أعماله المجزي عليها في الخير والشر، وذلك العدل الخاص قال تعالى: {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ} [غافر:١٧] فلذلك لم يقل مَلِكِ يَوْمِ الْحِسَابِ فوصفه بأنه مَلِكُ يَوْمِ الْعَدْلِ الصِّرْفِ وصف له بأشرف معنى الْمُلْكِ فإن الملوك تتخلد محامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل وقد عرف العرب الْمِدْحَةَ بذلك.

** ولما اتصف تعالى بالرحمة، انبسط العبد وغلب عليه الرجاء، فنبه بصفة الملك أو المالك ليكون من عمله على وجل، وأن لعمله يوماً تظهر له فيه ثمرته من خير وشر.

قال ابن عاشور: إتباع الأوصاف الثلاثة المتقدمة بهذا ليس لمجرد سرد صفات من صفاته تعالى، بل هو مما أثارته الأوصاف المتقدمة، فإنه لما وصف تعالى بأنه: رب العالمين، الرحمن الرحيم، وكان ذلك مفيدا لما قدمناه من التنبيه على كمال رفقه تعالى بالمربوبين في سائر أكوانهم، ثم التنبيه بأن تصرفه تعالى في الأكوان والأطوار تصرف رحمة عند المعتبر، وكان من جملة تلك التصرفات تصرفات الأمر والنهي المعبر عنها بالتشريع الراجع إلى حفظ مصالح الناس عامة وخاصة، وكان معظم تلك التشريعات مشتملا على إخراج المكلف عن داعية الهوى الذي يلائمه اتباعه وفي نزعه عنه إرغام له ومشقة، خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة في فاتحة الكتاب مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ومثيرا لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف، لذلك كان من مقتضى المقام تعقيبه بذكر أنه صاحب الحكم في يوم الجزاء {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [غافر:١٧] لأن الجزاء على الفعل سبب في الامتثال والاجتناب لحفظ مصالح العالم، وأحيط ذلك بالوعد والوعيد، وجعل مصداق ذلك الجزاء يوم القيامة. ولذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافا إلى يوم الدين.

فأما ملك فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه لأن شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم. ولو قيل: "رب يوم الدين" لكان

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن الرب رحمة وصفحا، وأما مالك فمثل تلك في إشعاره بإقامة الجزاء على أوفق كيفياته بالأفعال المجزى عليها.

** فإن قال قائل: أليس مالك يوم الدين والدنيا؟ فالجواب: بلى؛ لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه، إنما يكون في ذلك اليوم؛ لأن الله تعالى ينادي: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} فلا يجيب أحد؛ فيقول تعالى: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر:١٦]؛ في الدنيا يظهر ملوك؛ بل يظهر ملوك يعتقد شعوبهم أنه لا مالك إلا هم؛ فالشيوعيون مثلاً لا يرون أن هناك رباً للسموات والأرض؛ يرون أن الحياة: أرحام تدفع، وأرض تبلع؛ وأن ربهم هو رئيسهم.

قال في البحر المحيط: وفائدة تخصيص هذه الإضافة، وإن كان الله تعالى مالك الأزمنة كلها والأمكنة ومن حلها والملك فيها، التنبيه على عظم هذا اليوم بما يقع فيه من الأمور العظام والأهوال الجسام من قيامهم فيه لله تعالى، والاستشفاع لتعجيل الحساب والفصل بين المحسن والمسيء واستقرارهما فيما وعدهما الله تعالى به، أو على أنه يوم يرجع فيه إلى الله جميع ما ملكه لعباده وخوّلهم فيه ويزول فيه ملك كل مالك، قال تعالى: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} [مريم:٩٥] {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام:٩٤]

وإجراء هذه الأوصاف الجليلة على اسمه تعالى إيماء بأن موصوفها حقيق بالحمد الكامل الذي أعربت عنه جملة {الْحَمْدُ لِلَّهِ}، لأن تقييد مفاد الكلام بأوصاف متعلق ذلك المفاد يشعر بمناسبة بين تلك الأوصاف وبين مفاد الكلام مناسبة تفهم من المقام مثل التعليل في مقام هذه الآية.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{إِيَّاكَ} مفعول به مقدم؛ وعامله: {نعبد}؛ وقُدِّم على عامله لإفادة الحصر؛ فمعناه: "لا نعبد إلا إياك". وسب أعرابي آخر فأعرض عنه وقال: إياك أعني، فقال له: وعنك أعرض، فقدما الأهم.

والحصر المستفاد من التقديم في قوله: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} التعريض بالمشركين الذين يعبدون غير الله ويستعينون بغيره لأنهم كانوا فريقين منهم من عبد غير الله على قصد التشريك إلا أن ولعه واستهتاره بغير الله تعالى أنساه عبادة الله تعالى كما عبدت سبأ الشمس وعبد الفرس النور والظلمة وعبد القبط العجل وَأَلَّهُوا الْفَرَاعِنَةَ، وعبدت أمم السودان الحيوانات كالثعابين.

ومن المشركين من أشرك مع عبادة الله عبادة غيره وهذا حال معظم العرب ممن عبد الأصنام أو عبد الكواكب، فَقَدْ عَبَدَتْ ضَبَّةُ وَتَيْمٌ وَعُكْلُ الشَّمْسَ، وَعَبَدَتْ كِنَانَةُ الْقَمَرَ، وَعَبَدَتْ لَخْمٌ وَخُزَاعَةُ وَبَعْضُ قُرَيْشٍ الشِّعْرَى، وَعَبَدَتْ تَمِيمٌ الدبران، وعبدت طيء الثُّرَيَّا، وهؤلاء كلهم جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقربون بها إلى الله تعالى، فهؤلاء جمعوا العبادة والاستعانة بهم لأن جعلهم وسيلة إلى الله ضرب من الاستعانة.

** و {إِيَّاكَ} «التفات» لأنه انتقال من الغيبة، إذ لو جرى على نسق واحد لكان: "إياه". ولأهل البلاغة عناية بالالتفات الذي هو من فنون البلاغة لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه، وفيه أيضا إظهار الملكة في الكلام، والاقتدار على التصرف فيه.

وفائدته في {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} أنه لما ذكر أن الحمد لله المتصف بالربوبية والرحمة والمُلك والمِلك ليوم الدين، أقبل الحامد مخبراً بأثر ذكره الحمد المستقر له منه ومن غيره، أنه وغيره يعبده ويخضع له.

وكذلك أتى بالنون في {نَعْبُدُ * نَسْتَعِينُ} التي تكون له ولغيره، فكما أن الحمد يستغرق الحامدين، كذلك العبادة والاستعانة تستغرق المتكلم وغيره.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

قال ابن عاشور: وفي العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارك الدلالة على أن هذه المحامد صادرة من جماعات. ففيه إغاظة للمشركين إذ يعلمون أن المسلمين صاروا في عزة ومنعة، ولأنه أبلغ في الثناء من أعبد وأستعين لئلا تخلو المناجاة عن ثناء أيضا بأن المحمود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله.

ففي هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ "إياه"، ولأنه ذكر ذلك توطئة للدعاء في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ}... فمما يزيد الالتفات وقعا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} تخلصا يجيء بعده {اهْدِنَا الصِّرَاطَ}

وقال ابن عاشور أيضا: وهنا التفات بديع، فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال.

{نَعْبُدُ} «العبادة»: التذلل والخضوع، أو الطاعة كقوله تعالى: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ} [مريم:٤٤]، أو التقرب بالطاعة أو الدعاء: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر:٦٠] أي عن دعائي، أو التوحيد {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات:٥٦] أي ليوحدون، وكلها متقاربة المعنى.

والعبادة في الشرع هي: فعل ما يرضي الرب من خضوع وامتثال واجتناب. ولا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال، وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد، وأهمه ما كان عن محبة لأنه يرضي نفس فاعله، وهي تستلزم الخوف من غضب المحبوب، ولذلك قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران:٣١] فذلك يشعر بأن اتباع الشريعة يوجب محبة الله وأن المحب يود أن يحبه حبيبه وإلى هذا النوع ترجع عبادة أكثر الأمم، ومنها العبادة المشروعة في جميع الشرائع لأنها مبنية على حب الله

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

تعالى، وكذلك عبادة المشركين أصنامهم كما قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} [البقرة:١٦٥]. ومن الأمم من عبدت عن خوف دون محبة، وإنما هو لاتقاء شر المعبود، كما عبدت بعض الأمم الشياطين وعبدت المانوية من المجوس المعبود «أهرمن» وهو عندهم رب الشر والضر، ويرمزون إليه بعنصر الظلمة وأنه تولد من خاطر سوء خطر للرب «يزدان» إله الخير

ومعني الآية: نتذلل لك أكمل ذلّ؛ ولهذا تجد المؤمنين يضعون أشرف ما في أجسامهم في موطئ الأقدام ذلاً لله عزّ وجلّ: يسجد على الأرض؛ وقد تمتلئ جبهته من التراب. كل هذا ذلاً لله؛ ولو أن إنساناً قال: "أنا أعطيك الدنيا كلها واسجد لي" ما وافق المؤمن أبداً؛ لأن هذا الذل لله عزّ وجلّ وحده.

و «العبادة» تتضمن فعل كل ما أمر الله به، وترك كل ما نهى الله عنه؛ لأن من لم يكن كذلك فليس بعابد؛ لو لم يفعل المأمور به لم يكن عابداً حقاً؛ ولو لم يترك المنهي عنه لم يكن عابداً حقاً؛ العبد: هو الذي يوافق المعبود في مراده الشرعي؛ فالعبادة تستلزم أن يقوم الإنسان بكل ما أُمر به، وأن يترك كل ما نُهي عنه؛ ولا يمكن أن يكون قيامه هذا بغير معونة الله؛ ولهذا قال تعالى:

{وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} «الاستعانة»، طلب العون، وهي تسهيل فعل شيء يشق ويعسر على المستعين وحده. والمقصود هنا الاستعانة على الأفعال المهمة كلها التي أعلاها تلقي الدين وكل ما يعسر على المرء تذليله من توجهات النفوس إلى الخير وما يستتبع ذلك من تحصيل الفضائل. ولذلك حذف متعلق {نَسْتَعِينُ}، وقد أفاد هذا الحذف الهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدبا معه تعالى.

** وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وبين ما يطلبه من جهته.

** وقدمت العبادة على الاستعانة لتقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة لتحصل الإجابة إليها، وأطلق العبادة والاستعانة لتتناول كل معبود به وكل مستعان عليه.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

فوجه تقديم قوله {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} على قوله {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أن العبادة تقرب للخالق تعالى فهي أجدر بالتقديم في المناجاة. وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه فناسب أن يقدم المناجى ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك.

ولأن الاستعانة بالله تتركب على كونه معبودا للمستعين به ولأن من جملة ما تطلب الإعانة عليه العبادة فكانت متقدمة على الاستعانة في التعقل... وقد حصل من ذلك التقديم أيضا إيفاء حق فواصل السورة المبنية على الحرف الساكن المتماثل أو القريب في مخرج اللسان.

** وكرر {إِيَّاكَ} ليكون كل من العبادة والاستعانة سِيْقا في جملتين، وكل منهما مقصودة، وللتنصيص على طلب العون منه بخلاف لو كان إياك نعبد ونستعين، فإنه كان يحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون، أي وليطلب العون من غير أن يعين ممن يطلب.

** وفيه: إخلاص العبادة لله؛ لقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ ووجه الإخلاص: تقديم المعمول. فإذا أتم الحامد حمد ربه يأخذ في التوجه إليه بإظهار الإخلاص له انتقالا من «الإفصاح عن حق الرب» إلى «إظهار مراعاة ما يقتضيه حقه تعالى على عباده» من إفراده بالعبادة والاستعانة.. ومفاتحة العظماء بالتمجيد عند التوجه إليهم قبل أن يخاطبوا طريقة عربية.

** والاستعانة نوعان: «استعانة تفويض»؛ بمعنى أنك تعتمد على الله عزّ وجلّ، وتتبرأ من حولك وقوتك؛ وهذا خاص بالله عزّ وجلّ؛ واستعانة بمعنى «المشاركة» فيما تريد أن تقوم به: فهذه جائزة إذا كان المستعان به حياً قادراً على الإعانة؛ لأنه ليس عبادة؛ ولهذا قال الله تعالى: {وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة:٢]

فإن قال قائل: وهل الاستعانة بالمخلوق جائزة في جميع الأحوال؟

فالجواب: لا؛ الاستعانة بالمخلوق إنما تجوز حيث كان المستعان به قادراً عليها؛ وأما إذا لم يكن قادراً فإنه لا يجوز أن تستعين به: كما لو استعان بصاحب قبر فهذا حرام؛ بل شرك أكبر؛ لأن صاحب القبر لا يغني عن نفسه شيئاً؛ فكيف يعينه!!! وكما لو

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

استعان بغائب في أمر لا يقدر عليه، مثل أن يعتقد أن الوليّ الذي في شرق الدنيا يعينه على مهمته في بلده: فهذا أيضاً شرك أكبر؛ لأنه لا يقدر أن يعينه وهو هناك.

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (٦)

{اهدِنَا} الهداية: الدلالة والإرشاد بتلطف، ولذلك خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول لأن التلطف يناسب من أريد به الخير، والهداية في اصطلاح الشرع حين تسند إلى الله تعالى هي الدلالة على ما يرضي الله من فعل الخير ويقابلها الضلالة.

{الصِّرَاطَ} الطريق، وأصله بالسين من السرط، وهو اللقم، ومنه سمي الطريق لقماً، وإبدال سينه صاداً هي الفصحى، وهي لغة قريش، وبها قرأ الجمهور، وبها كتبت في المصحف الإمام، وأهل الحجاز نطقوه بالصاد مبدلة عن السين لقصد التخفيف في الانتقال من السين إلى الراء ثم إلى الطاء، لتطابق الصاد في الإطباق والاستعلاء والتفخيم مع الراء، استثقالا للانتقال من سفل إلى علو.

والصراط في هذه الآية مستعار لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه.

{المُستَقِيمَ} الذي لا عوج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيما وهو الجادة لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره فلا يضل فيه سالكه ولا يتردد ولا يتحير.

** والمستقيم هنا مستعار للحق البين الذي لا تخالطه شبهة باطل فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات، عن ابن عباس أن الصراط المستقيم: «دين الحق»، ونقل عنه أنه: «ملة الإسلام»، فكلامه يفسر بعضه بعضا، ولا يريد أنهم لقنوا الدعاء بطلب الهداية إلى دين مضى، وإن كانت الأديان الإلهية كلها صرطا مستقيمة بحسب أحوال أممها يدل لذلك قوله تعالى في حكاية غواية الشيطان: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [لأعراف:١٦]

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وقد يوجه هذا التفسير بحصول الهداية إلى الإسلام فعلمهم الله هذا الدعاء لإظهار منته، وقد هداهم الله بما سبق من القرآن قبل نزول الفاتحة ويهديهم بما لحق من القرآن والإرشاد النبوي. وإطلاق الصراط المستقيم على دين الإسلام ورد في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً} [الأنعام: ١٦١].

** لقد تهيأ لأصحاب هذه المناجاة أن يسعوا إلى طلب حظوظهم الشريفة من الهداية بعد أن حمدوا الله ووصفوه بصفات الجلالة ثم أتبعوا ذلك بقولهم: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} الذي هو واسطة جامع بين تمجيد الله تعالى وبين إظهار العبودية وهي حظ العبد بأنه عابد ومستعين وأنه قاصر ذلك على الله تعالى، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب، حتى إذا ظنوا بربهم الإقبال عليهم ورجوا من فضله، أفضوا إلى سؤل حظهم فقالوا: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} فهو حظ الطالبين خاصة لما ينفعهم في عاجلهم وآجلهم، فهذا هو التوجيه المناسب لكون الفاتحة بمنزلة الديباجة للكتاب الذي أنزل هدى للناس ورحمة فتتنزل هاته الجملة مما قبلها منزلة المقصد من الديباجة، أو الموضوع من الخطبة، أو الخلاصة من القصيدة.

** وفيه: لجوء الإنسان إلى الله عزّ وجلّ بعد استعانته به على العبادة أن يهديه الصراط المستقيم؛ لأنه لا بد في العبادة من إخلاص؛ يدل عليه قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}؛ ومن استعانة يتقوى بها على العبادة؛ يدل عليه قوله تعالى: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}؛ ومن اتباع للشريعة؛ يدل عليه قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}؛ لأن الصراط المستقيم هو الشريعة التي جاء بها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

** قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: "إنما فُرض على العبد الدعاء الراتب الذي يتكرر بتكرار الصلوات، بل الركعات فرضها ونفلها {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} لأن العبد مضطر دائما لهذا الدعاء هو الهداية للصراط المستقيم والثبات عليه حتى الممات".

** وقال ابن القيم رحمه الله: "على قدر استقامة العبد في الدنيا وثبوت قدمه على الصراط الذي نصبه في هذه الدار – القرآن والسنة- يكون ثبوت قدمه على الصراط

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذلك الصراط؛ فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف... فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا؛ حذو القذة بالقذة جزاءً وفاقاً: {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [النمل: ٩٠]

** وفيه: بلاغة القرآن، حيث حذف حرف الجر «إلى» من {اهدِنَــا}؛ والفائدة من ذلك: لأجل أن تتضمن طلب الهداية التي هي هداية العلم، وهداية التوفيق؛ لأن الهداية تنقسم إلى قسمين: «هداية علم وإرشاد»؛ و «هداية توفيق وعمل»؛ فالأولى ليس فيها إلا مجرد الدلالة؛ والله عزّ وجلّ قد هدى بهذا المعنى جميع الناس، كما في قوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ} [البقرة:١٨٥]؛ والثانية فيها التوفيق للهدى، واتباع الشريعة، كما في قوله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة:٢] وهذه قد يحرمها بعض الناس، كما قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [فصلت:١٧].. {فَهَدَيْنَاهُمْ} أي بيّنّا لهم الحق، ودَلَلْناهم عليه؛ ولكنهم لم يوفقوا.

** ويقول ابن رجب: "وأما سؤال المؤمن: {اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} فإن الهداية نوعان:

«هداية مجملة»: وهي الهداية للإسلام والإيمان، وهي حاصلة للمؤمن.

«وهداية منفصلة»: وهي هدايته إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام وإعانته على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلاً ونهاراً، ولهذا أمر الله عباده أن يقرؤوا في كل ركعة من صلاتهم {اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} وإذا كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وهو النبي يقول في دعائه بالليل (اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [مسلم] فكيف بغيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

{صِرَاطَ الَّذِينَ} بدل أو عطف بيان من {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}، فذكر التفصيل بعد الإجمال؛ لقوله تعالى: {اهدِنَــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} وهذا مجمل؛ {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}: وهذا مفصل؛ لأن الإجمال ثم التفصيل فيه فوائد:

١/ أن النفس إذا جاء المجمل تترقب، وتتشوف للتفصيل والبيان؛ فإذا جاء التفصيل ورد على نفس مستعدة لقبوله متشوفة إليه.

٢/ بيان أن الذين أنعم الله عليهم على الصراط المستقيم.

٣/ «التوكيد اللفظي» لما فيه من التثنية والتكرير، فإعادة الاسم في البدل أو البيان ليبنى عليه ما يراد تعلقه بالاسم الأول أسلوب بهيج من الكلام البليغ لإشعار إعادة اللفظ بأن مدلوله بمحل العناية وأنه حبيب إلى النفس.

والجمع بين هذه الفوائد لا يتأتى على وجه معتبر عند البلغاء إلا بهذا الصوغ البديع.

{أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} الذين أفيضت عليهم النعم الكاملة، وفيه معنى بديع وهو أن الهداية نعمة.

والذين أنعم الله عليهم هم خيار الأمم السابقة، وهم المذكورون في قوله تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً} [النساء:٦٩]

وإسناد فعل الإنعام عليهم إلى ضمير الجلالة، تنويه بشأنهم خلافا لغيرهم من المغضوب عليهم والضالين.

ثم إن في اختيار وصف {الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} بأنه {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} دون بقية أوصافه:

// تمهيدا لِبِسَاطِ الإجابة، فإن الكريم إذا قلت له: "أعطني كما أعطيت فلانا" كان ذلك أنشط لكرمه، كما في قوله: (كما صليت على إبراهيم)، فيقول السائلون: اهدنا الصراط المستقيم الصراط الذي هديت إليه عبيد نعمك.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وَتَهَمُّمًا بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الممتحنة:٦]، وتوطئة لما سيأتي بعد من التبري من أحوال المغضوب عليهم والضالين فتضمن ذلك تفاؤلا وتعوذا.

{غيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ} هم اليهود، وكل من علم بالحق ولم يعمل به.

{وَلاَ} "لا" مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من لفظ {غيرِ} نحو قوله: {أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ} [المائدة:١٩] وهو أسلوب في كلام العرب.

{الضَّالِّينَ} هم النصارى قبل البعثة، وكل من عمل بغير الحق جاهلاً به. والضلال سلوك غير القصد، يقال: "ضل عن الطريق" سلك غير جادتها.

أي غير طريق المغضوب عليهم الذي عرفوا الحق ولم يتبعوه، كاليهود. وغير طريق الضالين عن الحق الذي لم يهتدوا إليه لتفريطهم في طلب الاهتداء كالنصارى.

** فأسباب الخروج عن الصراط المستقيم: إما الجهل؛ أو العناد؛ والذين سببُ خروجهم العناد هم المغضوب عليهم. وعلى رأسهم اليهود؛ والآخرون الذين سبب خروجهم الجهل كل من لا يعلم الحق. وعلى رأسهم النصارى؛ وهذا بالنسبة لحالهم قبل البعثة. أعني النصارى؛ أما بعد البعثة فقد علموا الحق، وخالفوه؛ فصاروا هم، واليهود سواءً. كلهم مغضوب عليهم.

** فاختتمت هذه السورة العظيمة برسم أسباب الافتراق وآثارها، حيثُ يقع الصراط المستقيم بين طريق المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا العلم وأهملوا العمل به. وبين طريق الضالين الذين اجتهدوا في العمل بلا علم. فأهل الصراط المستقيم، أهل السنة جمعوا بين العلم والعمل.

** قال ابن عاشور: ومن غرض وصف الذين أنعمت عليهم بأنهم {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} التعوذ مما عرض لأمم أنعم الله عليهم بالهداية إلى صراط الخير بحسب زمانهم بدعوة الرسل إلى الحق فتقلدوها ثم طرأ عليهم سوء الفهم فيها فغيروها

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وما رعوها حق رعايتها، والتبرؤ من أن يكونوا مثلهم في بطر النعمة وسوء الامتثال وفساد التأويل وتغليب الشهوات الدنيوية على إقامة الدين حتى حق عليهم غضب الله تعالى، وكذا التبرؤ من حال الذين هدوا إلى صراط مستقيم فما صرفوا عنايتهم للحفاظ على السير فيه باستقامة، فأصبحوا من الضالين بعد الهداية إذ أساءوا صفة العلم بالنعمة فانقلبت هدايتهم ضلالا.

** وقال أيضا: ويشمل المغضوب عليهم والضالون فرق الكفر والفسوق والعصيان، فالمغضوب عليهم جنس للفرق التي تعمدت ذلك واستخفت بالديانة عن عمد أو عن تأويل بعيد جدا، والضالون جنس للفرق التي أخطأت الدين عن سوء فهم وقلة إصغاء؛ وكلا الفريقين مذموم لأننا مأمورون باتباع سبيل الحق وصرف الجهد إلى إصابته، واليهود من الفريق الأول والنصارى من الفريق الثاني. وما ورد في الأثر مما ظاهره تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى فهو إشارة إلى أن في الآية تعريضا بهذين الفريقين اللذين حق عليهما هذان الوصفان لأن كلا منهما صار علما فيما أريد التعريض به فيه.

** ومن بلاغة القرآن في هذه الآيات:

// جاء التعبير عن المغضوب عليهم باسم المفعول الدال على أن الغضب عليهم حاصل من الله تعالى، ومن أوليائه.

// أنه يقدم الأشد، فالأشد؛ لأنه تعالى قدم المغضوب عليهم على الضالين؛ لأنهم أشد مخالفة للحق من الضالين؛ فإن المخالف عن علم يصعب رجوعه. بخلاف المخالف عن جهل.

** وقد أنجر في غضون تفسير هذه السورة الكريمة من علم البيان فوائد كثيرة لا يهتدي إلى استخراجها إلا من كان توغل في فهم لسان العرب، ورزق الحظ الوافر من علم الأدب، وكان عالماً بافتنان الكلام، قادراً على إنشاء النثار البديع والنظام.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

وأما من لا اطلاع له على كلام العرب، وجسا طبعه حتى عن الفقرة الواحدة من الأدب، فسمعه عن هذا الفن مسدود، وذهنه بمعزل عن هذا المقصود.

قالوا: وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

- النوع الأول: حسن الافتتاح وبراعة المطلع، فإن كان أولها {بسم الله الرحمن الرحيم}، على قول من عدها منها، فناهيك بذلك حسناً إذ كان مطلعها، مفتتحاً باسم الله، وإن كان أولها {الحمد لله}، فحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ووصفه بماله من الصفات العلية أحسن ما افتتح به الكلام، وقدم بين يدي النثر والنظام، وقد تكرر الافتتاح بالحمد في كثير من السور، والمطالع تنقسم إلى حسن وقبيح، والحسن إلى ظاهر وخفي على ما قسم في علم البديع.

- النوع الثاني: المبالغة في الثناء، وذلك لعموم أل في الحمد.

- النوع الثالث: تلوين الخطاب على قول بعضهم، فإنه ذكر أن الحمد لله صيغته صيغة الخبر، ومعناه الأمر، كقوله: {لاَ رَيْبَ فِيهِ} [البقرة:٢] ومعناه النهي.

- النوع الرابع: الاختصاص باللام التي في {لله}، إذ دلت على أن جميع المحامد مختصة به إذ هو مستحق لها، وبالإضافة في {ملك يوم الدين} لزوال الأملاك والممالك عن سواه في ذلك اليوم، وتفرده فيه بالملك والملك، قال تعالى: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر:١٦] ولأنه لا مجازى في ذلك اليوم على الأعمال سواه.

- النوع الخامس: حذف العامل الذي هو في الحقيقة خبر عن الحمد، وهو الذي يقدر بـ كائن أو مستقر، قيل: ومنه حذف {صراط} من قوله غير المغضوب، التقدير: "غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين"، وأما من قيد الرحمن، والرحيم، ونعبد، ونستعين، وأنعمت، والمغضوب عليهم، والضالين، فيكون عنده في سورة محذوفات كثيرة.

- النوع السادس: التقديم والتأخير، وهو في قوله نعبد، ونستعين، والمغضوب عليهم، والضالين.

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com

– النوع السابع: التفسير، ويسمى التصريح بعد الإبهام، وذلك في بدل {صراط الذين..} من {الصراط المستقيم}.

– النوع الثامن: الالتفات، وهو في: {إياك نعبد وإياك نستعين}، {اهدنا}.

– النوع التاسع: طلب الشيء، وليس المراد حصوله بل دوامه، وذلك في {اهدنا}.

– النوع العاشر: سرد الصفات لبيان خصوصية في الموصوف أو مدح أو ذم.

– النوع الحادي عشر: التسجيع، وفي هذه السورة من التسجيع المتوازي، وهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والروي، قوله تعالى: {الرحمن الرحيم} {اهدنا الصراط المستقيم}، وقوله تعالى: {نستعين ولا الضالين}

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

PDF Created with deskPDF PDF Writer - Trial :: http://www.docudesk.com